الهوية الثقافية والعمرانية لقصور وادي مزاب بالجزائر

Cultural and Urban Identity of the Ksour of the M'zab Valley in Algeria

أ.د. عبد المجيد رمضان*، كلية الحقوق والعلو م السياسية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجز ائر، البريد الالكتروني: ramdane.abdelmadjid@univ-ouargla.dz

تاريخ الارسال:2026-09-16 تاريخ القبول:2026-09-22 تاريخ النشر:2026-09-30

ملخص

يتناول هذا البحث قصور وادي مزاب بالجزائر، في إطار إبراز القيمة التاريخية والمعمارية لهذه المراكز الحضرية، من خلال التركيز على السياق الجغرافي والتاريخي، وما أفرزه من تفاعل حضاري وثقافي عميق. ذلك بهدف التأكيد على قيمتها التراثية باعتبارها رصيداً حضارياً مهماً. واعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي مدعوما بالمنهجين التاريخي والسوسيولوجي لاستجلاء خصائص البنى العمرانية، والأنماط الاجتماعية، والمظاهر الثقافية. وتوصل الباحث إلى أن قصور وادي مزاب تمثل نموذجًا حضاريًا صحراويًا يجمع بين الخصوصية العمرانية والهوية الثقافية، بما يؤكد قيمتهما التراثية وضرورة صونها.

الكلمات المفتاحية: القصور، وادي مزاب، الجزائر، العمران التقليدي، الهوية الثقافية.

Abstract

This study examines the Ksour of the M'zab Valley in Algeria, highlighting the historical and architectural significance of these urban settlements. It focuses on their geographical and historical contexts and the profound civilizational and cultural interactions that shaped their development, with the aim of emphasizing their heritage value as an important cultural and civilizational legacy.

The study adopts an analytical approach, supported by historical and sociological approaches, to examine the characteristics of urban structures, social patterns, and cultural features. The findings reveal that the Ksour of the M'zab Valley represent a distinctive model of Saharan civilization, combining distinctive urban characteristics with a strong cultural identity, thereby highlighting their significant heritage value and the need for their preservation.

Keywords: Ksour, M'zab Valley, Algeria, Traditional Urbanism, Cultural Identity.

المؤلف المرسل*

مقدمة:

تقوم هذه الدراسة على مقاربة ثقافية وعمرانية لقصور وادي مزاب في جنوب الجزائر، ولا سيما غرداية ومليكة وبني يزقن وبونورة والعطف، بوصفها نماذج عمرانية متميزة نشأت في المجال الصحراوي وتطورت في ظل ظروف بيئية واجتماعية وثقافية متقاربة. وقد أسهمت هذه الظروف في تشكيل منظومة عمرانية متكاملة تعكس طبيعة المجتمع المحلي وخصوصيته الثقافية، من خلال تنظيم المجال، وتوزيع الوظائف العمرانية، وأنماط السكن، ومختلف المظاهر الاجتماعية والثقافية المرتبطة بها.

وتنطلق الدراسة من افتراض مفاده أن البيئة الصحراوية، إلى جانب التنظيم الاجتماعي والثقافي وأنماط التفاعل والتبادل، أسهمت في إنتاج خصائص عمرانية مميزة لقصور وادي مزاب، وجعلت من عمرانها تعبيرًا عن هوية ثقافية متجذرة. ومن هذا المنطلق، تسعى الدراسة إلى الكشف عن أبرز الخصائص العمرانية والاجتماعية والثقافية لهذه القصور، وبيان مدى تداخلها في تشكيل هويتها العمرانية والثقافية، فضلًا عن إبراز قيمتها التراثية وضرورة المحافظة عليها.

إشكالية البحث:

تتحدد الإشكالية في السؤال الرئيس: **كيف تتجلى الهوية الثقافية والعمرانية في قصور وادي مزاب بالجزائر، وما طبيعة العلاقة بين الخصائص العمرانية والأنماط الاجتماعية والمظاهر الثقافية في تشكيل خصوصيتها الحضارية؟**

ويتفرّع عنه تساؤلات فرعية:

- ما أهم الخصائص المميزة للتخطيط العمراني لقصور وادي مزاب وبنيتها المعمارية؟
- كيف تتجلى المظاهر الاجتماعية والثقافية في تنظيم المجال العمراني لهذه القصور؟

- إلى أي مدى أسهم التفاعل بين العمران والمجتمع والثقافة في تشكيل هويتها الحضارية والمحافظة عليها؟

أهمية الموضوع:

تنبع الأهمية من ثلاثة اعتبارات مترابطة:

- **علميًّا:** إثراء الدراسات المتعلقة بقصور وادي مزاب، من خلال تحليل خصائصها العمرانية وعلاقتها بالهوية الثقافية والاجتماعية.
- **معرفيًّا:** إبراز القيمة الحضارية والثقافية للقصور ودورها في الحفاظ على الذاكرة الجماعية والخصوصية المحلية.
- **عمليًّا:** دعم جهود حماية التراث العمراني والثقافي، وتعزيز التنمية الثقافية والسياحة التراثية المستدامة بما يراعي خصوصية المنطقة.

أهداف البحث:

يهدف المقال إلى توصيف السياقات التاريخية والجغرافية التي أفرزت قصور وادي مزاب، مع تحليل البنى العمرانية والنسق المكاني (مركزية المسجد، تدرّج الارتفاعات، شبكة الأزقة، مفردات التحصين). إلى جانب تفكيك الوظائف العلمية والدينية والاقتصادية وآثارها على التنظيم الاجتماعي والمؤسسي، وتفسير دوافعها التاريخية والبيئية والثقافية، وبلورة توصياتٍ عملية لتعزيز صون التراث المادي واللامادي وتثمينه في سياسات التنمية المحلية.

منهجية البحث ومصادره:

تعتمد الدراسة المنهج التاريخي مؤازرًا بأدوات التحليل السوسيولوجي والقراءة المورفولوجية للعمران التقليدي. وتستند الدراسة إلى طيفٍ من المصادر الأساسية والثانوية: وثائق محلية وتقارير تراثية، ودراسات تاريخية وأنثروبولوجية وعمرانية، وأعمال مرجعية حول مدن الصحراء والعمران الإباضي في وادي مزاب، إلى جانب تقارير وهيئات دولية متخصّصة بصون التراث الثقافي.

هيكلة المقال:

تنتظم المادة البحثية في ثلاثة محاور رئيسة تشكّل الهيكل العام للمقال؛ إذ يتناول المحور الأول الإطار النظري والمفاهيمي من خلال تحديد المفاهيم الأساسية المرتبطة بالمدن التاريخية الصحراوية والعمران التقليدي. أما المحور الثاني فيُخصَّص لقصور وادي مزاب، حيث يتم تناول سياق التأسيس والامتداد التاريخي، وأهم الوظائف التي اضطلعت بها، إضافة إلى الخصائص العمرانية والتنظيم الاجتماعي الذي يميزها.

ويأتي المحور الثالث الأخير فهو الخاتمة والتوصيات التي تلخّص أبرز النتائج المستخلصة، وتبرز الدلالات النظرية والعملية، وتقترح مسارات مستقبلية للبحث العلمي وصياغة سياسات أكثر حساسية للتراث والهوية المشتركة.

2. الإطار النظري والمفاهيمي

يُعَد هذا المحور المدخل الأساس لفهم موضوع البحث، ويضعنا أمام خلفية معرفية ونظرية تمكّن من استيعاب خصوصيات تجربة قصور وادي مزاب باعتبارها تراثا عمرانيا ورصيدًا حضاريًا ممتدا في التاريخ عبر القرون.

1.2. المدن التاريخية الصحراوية: تعريف وخصائص

يشكل تناول مفهوم المدن التاريخية الصحراوية مدخلاً أساسياً لفهم طبيعتها العمرانية ودلالاتها الحضارية. فهي ليست مجرد تجمعات سكنية نشأت في عمق الصحراء، بل فضاءات حملت أبعادًا دينية وثقافية وتجارية شكّلت هوية المجتمعات التي أسستها.

1.1.2. مفهوم المدن التاريخية

يُقصد بالمدن التاريخية تلك التجمعات العمرانية التي نشأت منذ قرون في سياقات اجتماعية واقتصادية وثقافية محددة، واحتفظت بمقوماتها المعمارية والرمزية بوصفها شاهداً على تطور الحضارة الإنسانية في مجالها الجغرافي. ويشير الباحثون إلى أنّ المدينة التاريخية ليست مجرد وعاء عمراني، بل هي نصّ حضاري يجسد قيم المجتمع الذي أنشأها،

بما تحمله من رموز دينية وثقافية وأنظمة اجتماعية متميزة (Al-Yousif, Mahdi Hussein, 2018,1-26).

كما تُعَدّ المدن التاريخية في الصحراء انعكاساً لعبقرية التكيف مع وسط طبيعي قاسٍ، حيث شح الموارد وضرورة التكيّف مع الظروف البيئية الصعبة، حيث نموذجاً متميّزاً لعبقرية الإنسان في التكيّف مع بيئة قاسية، تتّسم بندرة الموارد المائية، والتفاوت الحراري الكبير بين الليل والنهار، والعزلة الجغرافية التي تفرض قيوداً على الاتصال والتبادل.

فقد أبدع سكّان هذه المدن في ابتكار أنماط عمرانية وهندسية متكاملة تمزج بين البُعد الوظيفي والجمالي، بما يضمن تلبية احتياجاتهم الأساسية في السكن، والحماية، والتخزين، وتوفير المياه، وفي تصميم مساكن متلاصقة تتيح الظل وتحدّ من تأثير العوامل المناخية، إضافة إلى بناء قلاع وأسوار تؤمّن الحماية وتوفّر التنظيم الداخلي. وبهذا المعنى، فإن المدن الصحراوية التاريخية ليست مجرد مراكز استقرار بشري، بل هي منظومات معقّدة تعكس فهماً عميقاً للتوازن بين الإنسان والبيئة، وتكشف عن قدرة المجتمعات المحلية على تحويل التحديات الطبيعية إلى فرص للإبداع والابتكار الحضري (Boussoualim, Mestoul, 2013, 493–502.).

2.1.2 الخصائص العمرانية والثقافية للمدن الصحراوية

تتميز المدن الصحراوية بجملة من الخصائص التي أفرزتها طبيعة المكان والزمان، من أبرزها (Daoura et al., 2019, 119–154):

- **الطابع الدفاعي:** حيث أُنشئت المدن في مواقع حصينة على مرتفعات أو محاطة بأسوار وأبراج لمواجهة الأخطار. ولم يكن هذا الطابع الدفاعي مجرد تحصين عسكري، بل عنصر تخطيطي منظم، حيث أُنشئت المدن على مرتفعات أو أُحيطت بأسوار وأبراج لتأمين السكان والتجارة، مما منحها هوية عمرانية واضحة واستقلالية قوية.

- **المسجد المركزي:** غالباً ما يتموضع المسجد في قلب المدينة، ليكون محوراً عمرانياً ودينياً واجتماعياً. ولم يقتصر دوره على العبادة، بل كان مركزاً عمرانياً وروحياً وتعليمياً، يجتمع فيه السكان للتشاور والتعلم، ما جعله قلب الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية في المدينة.
- **النسيج العمراني الكثيف:** يتميز بأزقة ضيقة متعرجة لا تقتصر وظيفتها على التهوية وتوفير الظل وتقليل تأثير الحرارة فحسب، بل تسهم أيضاً في خلق فضاءات اجتماعية متداخلة تعزز روح التضامن والجوار، وتوفر حماية طبيعية ضد الرياح والعواصف الرملية.
- **البعد الثقافي والديني** في المدن الصحراوية يتجلّى دوره كمراكز للعلم والدعوة، حيث احتضنت مدارس وزوايا اضطلعت بمهمة تدريس القرآن الكريم وتعليم العلوم الشرعية واللغة العربية. هذه المؤسسات ساهمت في تخريج العلماء والفقهاء، ونشر الفكر الإصلاحي، وترسيخ الهوية الإسلامية، ما جعل هذه المدن منارات ثقافية وروحية في الجنوب الجزائري.
- **البعد التجاري:** ارتبطت المدن الصحراوية تاريخيًا بالطرق التجارية العابرة للصحراء، فشكّلت محطات حيوية للتبادل بين شمال إفريقيا وبلاد السودان، مما عزز دورها الاقتصادي والاجتماعي. كانت هذه المدن مراكز لتداول الملح، الصوف، التوابل، الأقمشة، والتمور، ما جعلها نقاط جذب للتجار والقوافل. وعملت هذه المدن كجسر حضاري وثقافي، حيث انتقلت من خلالها البضائع والأفكار والعادات بين شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء. وساهمت التجارة في استقرار السكان وتوسع العمران، فازدادت أهمية هذه المدن كمراكز حضرية.

يمكن القول إجمالا أن القصور شكلت النواة الأولى التي قامت عليها المدن الصحراوية، حيث شكّلت نموذجًا مثاليًا للحياة التقليدية في المنطقة. فقد أخذت هذه القصور في الاعتبار

خصوصيات البيئة الصحراوية من جهة، ومتطلبات الحياة الأسرية والثقافات الأمازيغية والعربية الإسلامية السائدة من جهة أخرى، مما جعلها إطارًا جامعًا لمختلف أوجه النشاط الاجتماعي والعمراني.

ورغم أن المظهر العام للمدن الصحراوية التقليدية يختلف من منطقة إلى أخرى، إلا أنها تتشابه في خصائصها الأساسية. فهي غالبًا ما تُشيَّد بالقرب من الواحات أو الآبار الجوفية التي تمثل مصدر الحياة الأساسي للسكان. كما تتسم بوحدات سكنية متقاربة ومترابطة، تُبنى بشكل دائري أو متراص حول المسجد، الذي يحتل عادةً مركز المدينة ويُعدّ القلب الروحي والاجتماعي لها.

أما المنازل، فتتميز بأفنيتها الداخلية التي توفر الخصوصية وتسمح بتهوية طبيعية، وبأسقفها المظللة التي تقي من حرارة الصيف القاسية. وتتشابك الأحياء مع ممرات ضيقة وملتوية، صُمّمت لتوفير الحماية من الرياح والرمال ولخلق ظلال طبيعية تخفف من قسوة المناخ. ولا تخلو هذه المدن من عناصر وظيفية مثل الآبار لتوفير مياه الشرب والغسيل، في حين تحيط بها الأسوار لتأمينها، وتطوّقها الأحزمة الخضراء التي تشكل حزامًا واقيًا وتمنحها لمسة حيوية وسط الصحراء القاحلة (مبعوج، قاسمي، 2016، 236).

2.2. التراث العمراني كرصيد حضاري

يمثل التراث العمراني التقليدي أحد أهم المداخل لفهم الهوية الثقافية للمجتمعات الصحراوية، إذ لا يقتصر على كونه موروثًا ماديًا من مبانٍ وأسوار وقصور، بل يمتد ليعكس منظومة من القيم الاجتماعية والثقافية المتوارثة.

1.2.2. مفهوم العمران التقليدي

يُقصد بالعمران التقليدي ذلك النمط من البناء والتخطيط العمراني الذي يستند إلى استعمال المواد المحلية وإلى تقنيات وأساليب معمارية موروثة عبر الأجيال، بما يعكس خبرة مجتمعية متراكمة في التكيف مع الخصائص البيئية والاجتماعية.

ويقوم هذا العمران على علاقة تكاملية بين الإنسان ومحيطه الطبيعي، حيث تُستثمر الموارد المتاحة بشكل رشيد لتحقيق الراحة المناخية والوظيفية، من خلال خصائص معمارية مميزة مثل استعمال الأسقف الطينية والجدران السميكة والنوافذ الصغيرة للحدّ من تأثير الحرارة، فضلاً عن اعتماد المنازل المتلاصقة والساحات الداخلية التي تُجسد قيم التضامن الاجتماعي وأنماط العيش الجماعي.

ويمثل العمران التقليدي في البيئات الصحراوية خصوصاً نموذجاً رائداً للاستدامة قبل أن يتبلور المفهوم في الأدبيات المعاصرة للتنمية المستدامة، إذ يعبّر عن قدرة المجتمعات المحلية على التكيف مع ظروف مناخية قاسية من جهة، وعلى صياغة حلول معمارية تراعي ترشيد استخدام الموارد الطبيعية من جهة أخرى. ومن ثمّ، فإن دراسة هذا النمط العمراني تُسهم في إعادة قراءة التجارب التاريخية المحلية باعتبارها مرجعاً نظرياً وعملياً يمكن الإفادة منه في صياغة مقاربات معاصرة للتخطيط العمراني المستدام (بوزيد، 2024، 34-39).

2.2.2 القيمة التراثية للمدن والقصور الصحراوية

يمثل التراث العمراني للمدن الصحراوية العريقة رصيداً حضارياً يتجاوز الحدود الوطنية. فهو يعبّر عن وحدة المجال الصحراوي وعمق التواصل بين شعوبه عبر العصور. وتكمن قيمته في (شاهد، 2019، 69-75):

- **البعد التاريخي:** كونه شاهداً على طرق التجارة الصحراوية وانتقال العلوم والثقافة.
- **البعد الثقافي:** حيث أسهمت هذه المدن في حفظ المخطوطات العربية والإسلامية النادرة، حيث يحتفظ وادي مزاب بعدد من المكتبات العائلية والجماعية التي تزخر بمخطوطات نادرة.
- **البعد العمراني:** إذ تسجلها اليونسكو ضمن التراث العالمي، باعتبارها نموذجاً فريداً للعمران التقليدي.

- **البعد الهوياتي:** إذ تُسهم هذه المدن في ترسيخ الانتماء الأمازيغي العربي الإسلامي المشترك، وتؤكد تلاقي الهويات عبر البعد الصحراوي الجامع.

في هذا الإطار النظري والمفاهيمي، جرى على وجه الإجمال، تعريف المدن التاريخية باعتبارها تجمعات عمرانية ذات أبعاد دينية وثقافية وتجارية، تعكس قدرة الإنسان على التكيف مع البيئة الصحراوية القاسية من خلال التخطيط الدفاعي، والنسق العمراني المتماسك، والوظائف الدينية والعلمية والتجارية.

3. قصوروادي مزاب بالجزائر

يمثل وادي مزاب أحد أهم النماذج العمرانية التاريخية في الصحراء الجزائرية، إذ شكّلت قصوره نسيجًا حضريًا فريدًا نبع من تفاعل عوامل دينية وسياسية وجغرافية. فقد تأسست هذه القصور في سياق خاص طبعته هجرات وافدة ذات طابع إباضي، احتضنها الأمازيغ سكان مزاب، في سعي البحث عن فضاءات آمنة، لتتحول سريعًا إلى مراكز دينية وعلمية واجتماعية ذات تنظيم صارم. كما جسّدت تجربة المزابيين قدرة مدهشة على التكيف مع الوسط الصحراوي القاسي، من خلال أنماط معيشية واقتصادية متنوعة، تراوحت بين الزراعة الواحية والتجارة العابرة للصحراء والصناعات التقليدية. أما عمرانها المتميز، فقد جاء انعكاسًا لروح الجماعة وتلاحمها، حيث احتل المسجد قلب القصر، وامتدت البيوت متدرجة في حلقات دفاعية متناسقة، بما يحقق الأمن والتوازن البيئي في آن واحد.

1.3. السياق التاريخي والجغرافي لنشأة القصور

نشأت القصور في وادي مزاب، في سياق استقبال الأمازيغ لهجرات وافدة يغلب عليها الطابع الإباضي، ضمن ظروف دينية وسياسية وجغرافية دفعت إلى البحث عن فضاءات آمنة ومستقرة، مع الأخذ بعين الاعتبار العوامل الدينية والسياسية والجغرافية. فالمجال الصحراوي القاسي فرض على المزابيين الإباضيين تطوير أنماط معيشية واقتصادية متكاملة تشمل الزراعة الواحية والتجارة العابرة للصحراء، وشكل هيكل القصور العمراني انعكاسا

للتنظيم الاجتماعي الجماعي ولحرص السكان على الأمن والدفاع، مع مراعاة التوازن البيئي وتكيفهم مع الطبيعة الصحراوية الصعبة.

1.1.3 مفهوم القصور الصحراوية:

القصر في معناه اللغوي يُطلق على المنزل الواسع أو المبني بالحجر، وجمع قصر هو قصور كما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: "تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا" (الأعراف – 74). ويُطلق كذلك على المكان الذي تُوزَّع فيه الفضاءات المشتركة بشكل منظم، وتُخزَّن فيه المؤونة، وتُمارَس فيه الأنشطة التربوية والدينية والاجتماعية. كما يُستعمل القصر كمكان للجوء والاحتماء عند وقوع الهجمات أو الاضطرابات، مما يعكس وظيفته الدفاعية والاجتماعية في آن واحد (أديدة، 2009، 156).

وغلب استعمال مصطلح "القصر" للدلالة على التجمعات السكنية التقليدية التي نشأت في الصحراء والواحات، وهو الاستعمال الأكثر شيوعًا في الأدبيات العربية. أما المقصود بالقصر الصحراوي، فهو ذلك التجمع السكني التقليدي المشيَّد في المناطق الصحراوية، وهو عبارة عن نسيج عمراني محصَّن يجمع بين المساكن المتلاصقة ذات الطابع المعماري المحلي، والتي تعكس خصوصيات المنطقة الثقافية والمناخية والجيولوجية. ويتميّز بوظائفه المتعددة؛ تجمع سكني واجتماعي متجانس، وحصن دفاعي يؤمّن الحماية لسكانه، بالإضافة إلى كونه يمثل وحدة محلية متكاملة شكّلت النواة الأولى لنشأة المدن الصحراوية بصورتها الحالية (عثماني، 2024، 112-129).

2.1.3. موقع وادي مزاب وصلته بالصحراء

يقع وادي مزاب شمال الصحراء الجزائرية، على بعد حوالي 600 كلم جنوب الجزائر العاصمة، في منطقة غرداية الحالية. يشكل الوادي وحدة جغرافية مغلقة نسبيًا، تحيط بها الهضاب والمرتفعات الصخرية، ما منحها طابعًا حصينًا وحماية طبيعية. يشتهر الإقليم بمناخه

الصحراوي القاري الجاف، مما فرض على السكان أنماطًا معيشية قائمة على التكيف مع البيئة.

وكان وادي مزاب نقطة تقاطع بين طرق القوافل الصحراوية التي تربط الساحل المتوسطي ببلاد السودان الغربي، وهو ما منح القصور طابعًا اقتصاديًا وتجاريًا مهمًا عبر العصور.

ويضم وادي مزاب خمسة قصور محصّنة، تُشكّل معًا وحدة متجانسة بصورة استثنائية، تمثل في عمق الصحراء بصمة لحضارة مستقرة ذات ثقافة أصيلة، استطاعت بفضل خصوصيتها أن تحافظ على تماسكها عبر القرون. وتتمثل هذه القصور مع بساتين النخيل التابعة لها في كل من: العطف وتُنطق محليا بين سكانها المزابيين الأمازيغ (تاجنينت)، غرداية (تغردايت)، بنورة (آت بونور)، مليكة (آت مليشت)، وبني يزقن (آت يرجن)، وهي القصور التي تأسست بين عامي 1012 و1355م. (الحاج سعيد، 2023، 18-21).

وقد حافظ وادي مزاب على نمط عيشه وأساليب بنائه منذ القرن الحادي عشر، بما ينسجم مع سياق اجتماعي وثقافي محدد، ويستجيب في الوقت ذاته لحاجة التكيّف مع بيئة قاسية، كما كان اختيار الموقع نتاج ضرورة تاريخية للانسحاب واعتبارات دفاعية.

كل واحدة من هذه الحصون المصغّرة، المحاطة بالأسوار، يتوسطها مسجد يعلوه مئذنة تقوم بدور برج مراقبة. وقد صُمّم المسجد كقلعة وآخر معقل للمقاومة في حال وقوع حصار. وتنتظم حول هذا البناء، الذي يُعدّ أساس الحياة الجماعية، بيوت مشيّدة في دوائر متناسقة حتى تصل إلى الأسوار. وتقوم كل دار على وحدة مكعّبة النمط، تعبّر عن مجتمع متكافئ يقوم على احترام البنية الأسرية وروابط الجوار، مع الحرص على حفظ خصوصيتها واستقلالها (Unesco, 2009).

3.1.3. النشأة التاريخية وعلاقة القصوربالهجرات والظروف الدينية والسياسية

لقد وفر موقع وادي مزاب للمجتمع شروط الحماية والتكيف مع الصحراء، فإن نشأته التاريخية ارتبطت ارتباطًا وثيقًا باستقبال بني مزاب للمهاجرين من مختلف الجهات خصوصا من منطقة سدراته ووارجلان، بعد أن ضاقت الحياة بالناس هناك لا سيما أصحاب الماشية، وغارت العيون وتوالى الجفاف عددا من السنين (معمر، 1987، 436).

هذه الهجرة تمت لأسباب اقتصادية ناتجة عن ظروف طبيعية. وهناك هجرات أخرى لأسباب سياسية، أهمها انقراض دولة بني مدرار في سجلماسة عام 366هـ/976م، ووصول بني هلال إلى المغرب عام 443هـ/1051م، والتخريب الذي تعرضت له سدراته من قبل الغزاة.

يضاف إلى هذه الهجرات الجماعية استقبال وادي مزاب لعائلات أو لأفراد على مر القرون من مختلف المناطق على غرار سدراته ووارجلان ووادي أريغ، وقصر بني خفيان قرب المنيعة، ومن جبل عمور وقصر البخاري والمدية، ووادي غنيم قرب الأبيض سيدي الشيخ، ومن جبل نفوسة وجربة، ومن سجلماسة وفقيق والساقية الحمراء وغيرها. فقد احتضن جماعات متلاحقة وأفرادا شاركوا بني مزاب في إنشاء قراهم وتعميرها، كانوا إباضيين أو اعتنقوا المذهب الإباضي عند استقرارهم بالمنطقة، ويطلق عليهم جميعا اسم بني مزاب مثل من سبقهم بها (الحاج سعيد، 27-28).

ويقول الباحث في تاريخ بني مزاب، يوسف بن بكير الحاج سعيد، أنه "يتبين مما سبق أن تصوير بني مزاب نزحوا إلى سدراته من تاهرت عند انقراض الدولة الرستمية، وأن سكان سدراته هاجروا منها إلى وادي مزاب، وعمروه وأسسوا قراه، تصوير خاطئ، الهدف منه جعل إباضية المغرب جماعة من الناس تطوف من مكان إلى مكان، والأمر على غير ذلك".

وتشير بعض المصادر الإباضية والتاريخية إلى أن بني مزاب كانوا في مرحلة سابقة على انتقالهم إلى الإباضية على مذهب الاعتزال، وبخاصة الاتجاه الواصلي، قبل أن تبدأ عملية التحول إلى الإباضية خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي (بوشامة، 2022، 29-49)

ولذلك فإن نشأة هذه القصور تاريخيا، تميزت بكونها ذات خلفية دينية دفاعية، حيث وفرت القصور حماية للمجتمع الإباضي من التهديدات الخارجية، وفي الوقت ذاته كانت فضاءً للتعايش والتنظيم الاجتماعي الصارم.

2.3. الوظائف الحضارية والدينية والعلمية

لم تقتصر قصور وادي مزاب، على السكن فقط، بل كانت مراكز تعليمية ودينية واجتماعية. فقد احتضنت المساجد الكبرى والمدارس علماء وفقهاء حافظوا على المخطوطات ونشروا المعرفة، بينما أسهم نظام "العزابة" في تنظيم الحياة الجماعية والسياسية. كما تنوع النشاط الاقتصادي بين الزراعة الواحية، التجارة العابرة للصحراء، والصناعات التقليدية مثل النجارة والفخار والمنسوجات، ما يعكس تماسك المجتمع وقدرته على التكيف مع البيئة الصحراوية.

1.2.3. مكانة القصوركمراكزعلمية ودينية

ارتبطت القصور بنظام ديني صارم تقوده المرجعية الإباضية؛ فالمساجد الكبرى في قلب القصور لم تكن مجرد أماكن للعبادة، بل مؤسسات تعليمية لنشر علوم الدين واللغة، ومجالس لاتخاذ القرارات المصيرية للجماعة.

وقد اشتهرت مدارس وادي مزاب بتخريج علماء وفقهاء أجلاء أثّروا في الفكر الإباضي والمغاربي عمومًا، وكان لهم دور في الحفاظ على المخطوطات والكتب النادرة. وعرف وادي مزاب نهضة فكرية وثقافية قام بها عدد من العلماء المزابيين الذين اغتربوا ورحلوا بعيدا لتحصيل العلم، فمنهم من أمَّ جربة وتونس أو مصر، ومنهم من قصد عُمان وغيرها من البلدان الإسلامية. ولما رجعوا انكبوا على الإرشاد والتدريس، وتخرج على أيديهم نخبة من المشايخ، واصلوا المسيرة ونشروا العلم وانقطعوا للتأليف في مختلف الفنون، وفي علوم الشريعة واللغة العربية بصفة خاصة. وكان من بين هؤلاء العلماء والأدباء، على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني، وقطب الأئمة الشيخ امحمد بن الحاج

يوسف طفيش، والأديب حمود بن سليمان رمضان، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم طفيش، والشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي، والشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، والشيخ محمد بن علي دبوز، والشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي، وشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء بن سليمان الشيخ، إضافة إلى الواعظتين المرشدتين في المجتمع النسوي مامه بنت سليمان باباز وعائشة بنت عمر نوح.

2.2.3. البنية الاجتماعية ونظام "العزابة"

يُعتبر النظام الاجتماعي في وادي مزاب من أبرز خصوصياته، حيث يقوم على مبدأ التضامن الجماعي والصرامة التنظيمية. ويتجسد ذلك في مؤسسة "العزابة"، وهي هيئة جماعية من العلماء والوجهاء تدير شؤون القصر والمجتمع، من القضاء والتعليم إلى تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية. أرسى هذا النظام قيم المساواة والانضباط داخل المجتمع، وحافظ على تماسكه رغم التحديات الخارجية.

والمتأمل في تاريخ المزابيين، كما يقول الأستاذ بكير بن سعيد أعوشت، يدرك كل الإدراك أن الطابع الإسلامي هو الذي طبع هذه المنطقة حضارة وثقافة وسلوكا واجتماعا متمثلا في نظام العزابة الذي أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي المتوفى سنة 440 هـ، واتخذ جنوب الشرق من المغرب الكبير منبرا لدعوته لا سيما وادي مزاب. وكان نظام "العزابة" أول مرة على هيئة حلقة العلم، ثم ترقى إلى نظام اجتماعي يهتم بالشؤون الاجتماعية والاقتصادية، إذ سن قوانينه العلامة أبو عمار عبد الكافي المتوفى سنة 570 هـ (أعوشت، 1991، 90-93).

3.2.3. النشاط الاقتصادي والتجاري

مارس سكان وادي مزاب أنشطة اقتصادية متنوعة، أبرزها الزراعة الواحية، حيث اعتمدوا على نظام ري متطور باستخدام نظام الري التقليدي لزراعة النخيل والحبوب

والخضر. وتعتبر هذه الزراعة نموذجًا للتكيف مع البيئة الصحراوية القاسية، وتشكل النخلة وثمارها من التمور المختلفة أول مصدر غذائي واقتصادي مهم لسكان المنطقة.

أما النشاط التجاري، فقد اشتهر المزابيون بدورهم كوسطاء تجاريين بين الشمال والجنوب، حيث كانوا ينقلون السلع من المدن الكبرى مثل الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة إلى مناطق الصحراء. هذا الدور جعلهم جزءًا أساسيًا من شبكة التجارة العابرة للصحراء، مما ساهم في ازدهار المنطقة اقتصاديًا.

فيما يتعلق بالصناعات التقليدية، فقد برع المزابيون في مجالات مثل النجارة والفخار وصناعة المنسوجات، مما ساعد في تعزيز الهوية الثقافية والاقتصادية للمجتمع. كما اضطلعت المرأة المزابية بدور مهم في صناعة المنسوجات والحرف المرتبطة بها، وأسهمت في نقل المهارات والتقنيات التقليدية من جيل إلى آخر. وتُظهر هذه الأنشطة قدرة المزابيين على التكيف والازدهار في بيئة صحراوية، مما يعكس براعتهم في استغلال الموارد المتاحة

3.3. الطابع العمراني والمعماري

تُبرز قصور وادي مزاب الطابع العمراني والمعماري المتفرد، الذي يقوم على تخطيط شعاعي مركزه المسجد، مما يعكس أهميته الدينية والاجتماعية. البيوت بُنيت بشكل دائري متدرج حول المسجد، مع شوارع ضيقة لتوفير الظل وحماية السكان من الرياح، واستخدام مواد محلية كالطين والحجر والجص. كما اتسمت القصور بالوظيفة الدفاعية، بأسوار عالية وأبراج مراقبة. كما أُخذت البيئة بعين الاعتبار في التصميم، من خلال استغلال التضاريس الطبيعية، والساحات الداخلية للتهوية والتبريد، ونظام الري التقليدي، ما يجعل هذه القصور نموذجًا بارزًا للتكيف مع الصحراء.

1.3.3. الخصائص العمرانية المميزة

تمثل القصور بوادي مزاب نموذجًا فريدًا للبنية العمرانية التقليدية التي تجمع بين التنظيم الاجتماعي والديني والبيئي، فالطابع العمراني المتجانس هو أبرز سمات هذه القصور،

حيث يتخذ البناء شكلًا شعاعيًا متكاملًا: يتوسط المسجد القصر ويشكل نقطة الانطلاق في البناء، بينما تتدرج البيوت حول المسجد بشكل دائري، ما يعكس مركزية الدين في حياة المجتمع المزابي. أما الشوارع الضيقة والمتعرجة، فهي مصممة لتوفير الظل وتقليل تأثير الرياح على السكان، فيما تعتمد العمارة على مواد محلية مثل الحجر والجص والطين، مما يضمن الانسجام مع البيئة الصحراوية.

يحمل القصر أيضًا طابعًا دفاعيًا واضحًا، إذ صُمم ليكون حصنًا منيعا، حيث يُحاط كل قصر بأسوار عالية مزودة ببوابات محكمة الإغلاق وأبراج للمراقبة. كما شيدت مخازن للتمور داخل كل منزل لضمان الأمن الغذائي في حال تعرض القصر للحصار، ما يعكس الوعي الاستراتيجي للمزابيين في مواجهة الأخطار.

ويتجلى البعد البيئي للقصور في التكيف مع ظروف الصحراء القاسية، من خلال استغلال التضاريس الطبيعية لبناء القصور على المرتفعات، واعتماد نظام الساحات الداخلية لتبريد البيوت، بالإضافة إلى استخدام مواد طبيعية محلية توفر عزلاً حراريًا فعالًا. كما ساعد نظام الري في المحافظة على الواحات بشكل مستدام رغم التحديات الراهنة، ما جعل القصور مثالًا رائدًا على الاستدامة البيئية قبل المفهوم الحديث لها (Bensalah, et al., 2018, 1–16).

2.3.3. القيمة العالمية لوادي مزاب ومعايير حمايته

يمثل وادي مزاب نموذجًا عمرانيًا استثنائيًا منذ القرن الحادي عشر، اتسم بصرامته وتنظيمه وتأثيره البالغ على العمارة العربية وتخطيط المدن حتى في العصر الحديث، إذ استلهم منه معماريون كبار مثل "لو كوربوزييهLe Courbusier ". كما تعكس مكوناته الأساسية (القصر، المقبرة، وبستان النخيل مع حصنه الصيفي)، شهادة فريدة على ثقافة المزابيين الإباضيين ومبادئهم المساواتية. ويبرز النظام المبتكر لالتقاط المياه وتوزيعها، مع إنشاء بساتين النخيل، تفاعلًا بشريًا بارعًا مع بيئة شبه صحراوية قاسية.

رغم التوسع العمراني وبعض الأضرار الطفيفة الناتجة عن الفيضانات، ما يزال وادي مزاب محتفظًا بسلامته الأساسية بفضل عمليات الترميم المستمرة للمعالم الدينية والدفاعية والهيدروليكية. كما أن التخطيط التقليدي للقصور واستمرار وظائفها الداخلية عززا أصالة الموقع، بما يحافظ على حيويته وارتباطه بثقافة المجتمع المزابي (Unesco, 2009).

ويتولى مهمة حماية وادي مزاب وتسييره ديوان حماية وترقية سهل مزاب (OPVM)الذي تأسس سنة 1970، من خلال تطبيق التشريعات الخاصة بالتراث الثقافي، وإنشاء قاعدة بيانات للمعالم، والترويج للبحث والتكوين في تقنيات البناء التقليدي. وقد تمت ترقية وادي مزاب إلى "قطاع محفوظ" بموجب القانون 04/98، إلا أن النمو العمراني والديمغرافي المتسارع منذ الثمانينيات يفرض إعداد مخطط شامل يوازن بين التنمية وصون التراث، خصوصًا في مناطق الواحات والفيضانات والمشهد الطبيعي المحيط.

خلاصة ما سبق، تؤكد أن قصور وادي مزاب تشكل نموذجًا فريدًا للعمارة التاريخية في الصحراء الجزائرية، حيث اندمجت العوامل الدينية والاجتماعية والسياسية مع البيئة الصحراوية لتنتج بنية حضرية متكاملة. فقد أدّت القصور وظائف متعددة، منها الدينية والعلمية والاجتماعية، بينما جسّد النظام الجماعي ووجود "العزابة" تنظيمًا محكمًا للحياة اليومية. كما برز الطابع العمراني المتميز للقصور، من خلال التخطيط الشعاعي حول المسجد، والأسوار والأبراج الدفاعية، واستغلال التضاريس الطبيعية ونظام الري التقليدي للواحات، ما يعكس براعة المجتمع المزابي في مواجهة تحديات الصحراء وتحقيق الاستدامة البيئية.

ورغم أن العديد من المدن والقصور الصحراوية بصفة عامة قد آلت إلى الخراب والاندثار، بفعل موجات الهجرة السكانية إلى المدن الكبرى من جهة، وبسبب ظهور أنماط عمرانية حديثة ذات طابع صناعي واقتصادي من جهة أخرى، وذلك على حساب هذه التجمعات التقليدية، فإن قصور وادي مزاب ما تزال محافظة على معالمها الصحراوية

وملامحها القديمة إلى حد بعيد، ومأهولة بالسكان إلى يومنا هذا. ما يجعلها شاهدًا حيًا على قدرة المجتمعات التقليدية على التكيّف مع البيئة الصحراوية، ونموذجًا حضريًا متكاملًا يجمع بين الأصالة التاريخية والاستمرارية الاجتماعية، ويمنحها مكانة استثنائية في التراث العمراني الجزائري والعالمي. وذلك بفضل ما تَوفّر لهذه المدن من إدارات واعية ومتميزة عملت على إحياء هذا التراث وصيانته، مع متابعة دائمة لكل ما يتعلق باستدامتها، رغم التحديات البيئية والتقنية التي تواجهها (أبو رحاب، 2023، 15).

4.الخاتمة

تظهر هذه الدراسة أن قصور وادي مزاب بالجزائر ليست مجرد تجمعات عمرانية تقليدية، بل هي نماذج حضارية أصيلة تعكس قدرة المجتمعات المحلية على التكيف مع البيئة القاسية، وبناء أنماط معيشية متوازنة تقوم على قيم التضامن والتنظيم الاجتماعي والانسجام مع الطبيعة، ما يجعلها إرثًا إنسانيًا فريدًا يستحق الحماية والصون.

وتبرز من خلال الدراسة عدة نتائج أهمها:

- قدرة السكان على تطوير هندسة عمرانية تتلاءم مع المناخ والموارد الطبيعية المحدودة.
- استمرارية القيم الاجتماعية مثل التعاون، العدالة في توزيع الموارد، وروح الجماعة في إدارة الحياة اليومية.
- تعرّض هذه القصور اليوم لمخاطر متزايدة نتيجة التوسع العمراني الحديث، الإهمال، وقلة الوعي بأهميتها الحضارية.

انطلاقًا من ذلك، تتأكد الحاجة إلى حماية هذه المواقع بوصفها تراثًا وطنيا، بل وتراثًا إنسانيًا عالميًا. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، يمكن اقتراح مجموعة من التوصيات العملية، من أبرزها:

1. إدماج هذه المدن والقصور في المشاريع البحثية الأكاديمية عبر تشجيع الدراسات التاريخية، الأثرية، والاجتماعية، بما يسمح بفهم أعمق لآليات نشأتها واستمرارها.
2. تطوير برامج سياحية ثقافية تبرز خصوصياتها المعمارية والحضارية، بما يسهم في تنمية الاقتصاد المحلي ويحافظ في الوقت نفسه على أصالتها.
3. تعزيز التعاون بين مختلف الهيئات الوطنية والدولية في مجالات الترميم والتثمين، عبر تبادل الخبرات وإقامة ورش مشتركة لصيانة الموروث العمراني.
4. إشراك المجتمع المحلي في جهود الحماية من خلال برامج توعية وتدريب، حتى يبقى السكان هم الحارس الأول لتراثهم.

وبهذا، فإن حماية هذه القصور ليست مجرد مسؤولية مؤسساتية أو رسمية، بل هي مسؤولية جماعية تتقاطع فيها جهود الدولة، الجامعة، والمجتمع المدني.

إن صون هذا التراث يعني الحفاظ على هوية المجتمعات المحلية، وتعزيز روابطها التاريخية والثقافية بوطنها، وضمان نقل هذا الإرث الأصيل إلى الأجيال المقبلة.

5.المراجع:

– أحمد بوشامة. (2022). الجغرافية المذهبية للمغرب الأوسط من القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 6هـ/12م. أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د) في التاريخ الوسيط. قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة غرداية.

– أحلام مبعوج، حفيظة قاسمي. (2016). الاستثمار كاستراتيجية للتنمية الحضرية في المدن الصحراوية. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بملتقى دولي حول تحولات المدينة الصحراوية: تقاطع مقاربات حول التحول الاجتماعي والممارسات الحضرية، جامعة ورقلة.

– أحمد ولد أديده. (2009). الصحراء الكبرى: مدن وقصور. منشورات وزارة الثقافة، الجزائر.

– بكير بن سعيد أعوشت. (1991). وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية: دينيا، تاريخيا واجتماعيا. المطبعة العربية، غرداية، الجزائر.

– شاهد، علي حيدر . (2019.). تأثير النمو العمراني على واقع وشكل الفضاء العمومي للمدن الصحراوية (حالة دراسة مدينة ورقلة). أطروحة دكتوراه علوم في الهندسة المعمارية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

- عثمان عثماني، فتحية تمرسيت. (2024). التشوّه العمراني ومظاهره في القصور الصحراوية – دراسة حالة قصر المدينة القديمة الأغواط، مجلة دفاتر المخبر، المجلد 19، العدد 02.
- علي يحي معمر. (1987). الإباضية في الجزائر. ج 2، المكتبة العربية، غرداية، الجزائر.
- فؤاد بوزيد. (2024). مذكرة الدروس لمقياس العمران والعمارة الإسلامية. قسم علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الثامن ماي 1945 بقالمة، الجزائر.
- محمد السيد محمد أبو رحاب. (2023). تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية. تأليف مجموعة من الباحثين، الجزء الثاني، إصدارات مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر.
- يوسف بن بكير الحاج سعيد. (2023). تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط 5، مطبعة بصمة حي ترشين، بني يزقن، غرداية، الجزائر.
- Al-Yousif, Ibrahim Jawad Kadhim, and Mohammed Mahdi Hussein. (2018). "Urban Integration of Historic Centers." *Iraqi Journal of Architecture and Planning* 9 (1).
- Bensalah, I., Yousfi, B., Menaa, N., & Bougattoucha, Z. (2018). *Urbanisation de la vallée du M'zab et mitage de la palmeraie de Ghardaïa (Algérie) : un patrimoine oasien menacé*. Belgeo Revue belge de géographie, 2.
- Boussoualim, Aicha, and Djamel Mestoul. (2013). "Compact Cities as a Response to the Challenging Local Environmental Constraints in Hot Arid Lands of Algeria." *Energy Procedia* 42, no. 2.
- Daoura, N. S., Djamel Mestoul, Samia Lamraoui, and Boussoualim Aicha. (2019). "Vernacular Architecture in Arid Climates: Adaptation to Climate Change." In *Bioclimatic Architecture in Warm Climates*, Cham: Springer Nature.
- Gaiya, Abel B.S. (2024). "The Collapse of Trans-Saharan Trade and the Enduring Difficulties of Revitalization." *ResearchGate*, March 17.
- Unesco . (2009). World Heritage Convention. *M'Zab Valley*. https://whc.unesco.org/en/list/188/